بسم الله الرحمن الرحيم

٣٤ ـ سورة سبأ

سميت بها لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة فى السعة وعدم الكلفة والخلوّ عن الآفة، وتبدّلها بالنقم، لمن كفر بالمنعم.. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايمىّ. وهى مكية. واستثنى منها[1] (وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ) الآية. وروى الترمذىّ[2] عن فروة بن مسيك المرادىّ قال: أتيت النبىّ ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألا أقاتل من أدبر من قومى؟ الحديث. وفيه: وأنزل فى سبأ ما أنزل. فقال رجل: يا رسول الله! وما سبأ؟ الحديث.

قال ابن الحصار: هذا يدل على أن هذه القصة مدنية. لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع.

قال: ويحتمل أن يكون قوله (وأنزل) حكاية عما تقدّم نزوله قبل هجرته. أفاده فى (الإتقان) وآيها أربع وخمسون.

---

(١) [٣٤/ سبأ/ ٦].

(٢) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٣٤ ـ سورة سبأ، ١ ـ حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأٰخِرَةِ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » خلقاً وملكا ، وتصرفا بما شاء « وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأٰخِرَةِ » أى فى النشأة الآخرة. قال الشهاب: السموات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره . وهو يشتمل على النعم الدنيوية. فعلم من التوصيف بقوله (ٱلَّذِى) الخ ، أنه محمود على نعم الدنيا . ولما قيّد الثانى بكونه فى الآخرة، علم أن الأول محله الدنيا فصار المعنى : أنه المحمود على نعم الدنيا فيها ، وعلى نعم الآخرة فيها . أو هو من باب الاحتباك . وأصله : الحمد لله الخ فى الدنيا ، وله ما فى الآخرة والحمد فيها . فأثبت فى كل منها ماحذف من الآخرة . وقوله (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ) معطوف على الصلة ، أو اعتراض ، إن كانت جملة (يَعْلَمُ) حالية (وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ) أى الذى أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته « ٱلْخَبِيرُ » أى بخلقه وأعمالهم وسرائرهم ، ثم ذكر مما يحيط به علماً قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ)

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من الأمطار والمياه والكنوز والدفائن والأموات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب « وَمَا يَنزِلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والمقادير « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة وأعمال العباد « وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ » أى لمن تاب من المؤمنين وقام بواجب شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » يعنى مشركى مكة « لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ » أى ساعة الجزاء ، إنكاراً لها « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ » أى الساعة . رد لكلامهم وتأكيد لما نفوه ، باليمين بالله عزّ وجلّ « عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ » بالجرّ صفة ، والرفع خبر محذوف . وقرئ (علّام) بالجرّ . وفى هذا التوصيف تقوية للتأكيد . لأن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به ، يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته . لما أن فى حكم الاستشهاد على الأمر . لا سيما إذا خص من الأوصاف ماله اختصاص بهذا المعنى . فإن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها فى الخفية ، وأولها مسارعة إلى القلب ، إذا قيل عالم الغيب « لَا يَعْزُبُ » أى لا يغيب بضم الزاى وكسرها « عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ » أى فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شىء وإن تناهى فى الصغر . فالعظام وأجزاء البدن ، وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرّقت . ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، لسعة علمه وعظم قدرته ، جلّ شأنه .

لطائف :

الأولى ـ عامة القرّاء على رفع (أَصْغَرُ) و (أَكْبَرُ) وفيه وجهان : أحدهما الابتداء

والخبر (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) والثانى النسق على (مثقال). وعلى هذا فيكون قوله (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) تأكيداً للنفى فى (لَا يَعْزُبُ) كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين . ويكون فى محل الحال . وقرأ بعض السلف بفتح الراءين . وفيه وجهان : أحدهما ـ أن (لا) هى لا التبرئة. بنى اسمها معها . والخبر قوله (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) . والثانى ـ النسق على (ذَرَّةٍ) لامتناعه من الصرف .

الثانية ـ يشير قوله تعالى (وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ) إلى أن (مِثْقَالَ) لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً .

الثالثة ـ قال الكرخى : فإن قيل فأىُّ حاجة إلى ذكر (الأكبر) فإن من علم الأصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت فيه الصغائر لكونها محل النسيان. وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فأعلم أن الإثبات فى الكتاب ليس كذلك . فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » علة لقوله تعالى (لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وبيان لما يقتضى إتيانها من جزاء المحسن والمسىء « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى عيش هنىء فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا » أى بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك « مُعَٰجِزِينَ » أى مقدرين الغلبة والعجز فى زعمهم الفاسد وظنهم الباطل « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ » وهو أسوأ العذاب و (مِّن) للبيان « أَلِيمٌ » بالرفع صفة (عذاب)،

وبالجرّ صفة (رجز). قراءتان. وقد جوّز فى قوله (وَٱلَّذِينَ سَعَوْ) أن يكون مبتدأ، وجملة (أُوْلَـٰٓئِكَ..الخ) خبره وأن يعطف على (ٱلَّذِينَ) قبله . أى ويجزى الذين سعوا . ويكون جملة (أُوْلَـٰٓئِكَ) التى بعده مستأنفة ، والتى قبله معترضة . وفى التعبير عن طعنهم وصدّهم بالسعى ، تمثيل لحالهم . فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعى العظيم والجدّ البليغ، ليروّج كذبه لعله يعجز المتمسك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)

[٧] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٨] (أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ، بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ)

« وَيَرَى » أى يعلم « ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ » أى دينه وشرعه « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى من قريش « هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ » يعنون النبىّ ﷺ « يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أى فرقتم كل تفريق ، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً « إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى فيما قاله « أَم بِهِۦ جِنَّةٌ » أى جنون تخيل به ذلك. فردّ تعالى عليهم مانعى به سوء حالهم بقوله « بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ » أى المتناهى أمره . فإن من يدعى إلى الصلاح والرشاد؛ ونبذ الهوى والفساد، فيرمى الداعى بالفرية والجنون ، لمُغْرِق فى الجهالة. ومبعد أىّ بعد فى الضلالة. ثم أشار إلى تهويل تلك العظيمة التى تفوهوا بها ، وإنها موجبة لنزول أشد العذاب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى : أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارها وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . أفاده الزمخشرىّ . و (الكسف) بسكون السين ، بمعنى القطع ، إما جمع كسفة ، أو فعل بمعنى مفعول ، أو مخفف من المصدر . وقرأ حفص (كسفاً) بالفتح « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله « لَآيَةً » أى دلالة واضحة « لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى راجع إلى ربه مطيع له . فإن شأنه لا يخلو من الاعتبار فى آياته تعالى ، على أنه قادر على كل شىء من البعث ونشر الرميم كما قال تعالى[1] (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ) وقال تعالى[2] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ثم أخبر تعالى عما آتى داود وسليمان من الفضل والملك وسعة السلطان ووفرة الجند وكثرة العدد والعدد ، ببركة إنابتهما وقيامهما بشكر الرب تعالى ، عِدَةً للنبىّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المنيبين الشاكرين بنيل مثل ذلك ، وتذكيراً بقدرته على كل شىء ، فقال تعالى :

(١) [٣٦ / يس / ٨١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا، يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ، وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ)

[١١] (أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ، وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ » أى رجّعى معه التسبيح و (يَـٰجِبَالُ) بدل من (فَضْلًا) أو من (ءَاتَيْنَا) بتقدير قولنا ، أو قلنا يا جبال أوّبى معه « وَٱلطَّيْرَ » بالرفع والنصب ، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها . وجوز انتصابه مفعولاً معه وأن يعطف على (فَضْلًا) بمعنى وسخرنا له الطير . قال الزمخشرىّ : فإن قلت أىّ فرق بين هذا النظم وبين أن يقال وآتينا داوود منا فضلاً، تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما ! ألا ترى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته . انتهى . « وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ » أى دروعا واسعات « وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ » أى اقتصد فى نسج الدروع لتتناسب حلقها « وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا » أى وقلنا له ولأهله ذلك « إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فأجازيكم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ، وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ)

«وَلِسُلَيْمَـٰنَ» أى وسخرنا له «ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » أى جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشىّ كذلك. والريح الهواء المسخر بين السماء والأرض. ويطلق بمعنى

النصرة والدلالة والغلبة والقوة، كما في القاموس « وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » أي النحاس المذاب. أي أجرينا له ينبوعه لكثرة ماتوفر لديه منه من سعة ملكه « وَمِنَ ٱلْجِنِّ » أي الشياطين الأقوياء « مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ » أي من رفيع المباني وإشادة القصور وغيرها « بِإِذْنِ رَبِّهِۦ » أي بأمره تعالى « وَمَن يَزِغْ » أي يعدل « مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ » أي النار. ثم فصل ماذكر من عملهم بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ، ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ)

« يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ » أي مساكن ومجالس شريفة أو مساجد « وَتَمَٰثِيلَ » أي صور ونقوش منوعة على الجدر والسقوف والأعمدة، جمع (تمثال) وهو كل ماصوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان . ولم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : قال ابن الفرس: احتجت به فرقة في جواز التصوير، وهو ممنوع فإنه منسوخ في شرعنا « وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ » أي وصحاف كالجوابي وهي الحياض الكبار . و (الجفان) جمع جفنة وهي كالصحفة والقصعة ، مايوضع فيه الطعام مطلقا . وقيل الجفنة أعظم القصاع . ثم يليها القصعة وهي ماتشبع عشرة . ثم الصحفة وهي ماتشبع خمسة. ثم الميكلة وهي ماتشبع ثلاثة أو اثنين . ثم الصحيفة « وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ » أي ثابتات على الأثافي، لاتنزل عنها لعظمها « ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا » أي قيل لهم: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه . وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف . كما أن فيه وجوب الشكر . وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان . لأن حقيقته صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ماخلق لأجله . وداود عليه السلام قد يدخل هنا في (آله) فإن آل الرجل قد يعمه « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ » أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ، أكثر أوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ)

«فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ» أى على سليمان « ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ» وهى الأرضة « تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ » أى عصاه التى ينسأ بها ، أى يطرد ويؤخر «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ » أى الشديد من الجرى على رسمه لهم ، والدأب عليه ، لظنهم إياه حيّا .

ثم بين تعالى من أخبار بعض الكافرين بنعمه، إثر بيان أحوال الشاكرين لها، مافيه عظة واعتبار ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ » اسم لأبى قبيلة . وقد قرئ بمنع الصرف على أنه اسم لها « فِى مَسْكَنِهِمْ » أى فى مواضع سكناهم ، وهى باليمن يقال لها (مأرب) كمنزل من بلاد الأزد ، فى آخر جبال حضرموت . وكانت فى الزمن الأول قاعدة التبابعة ، فإنها مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل. وقرئ (مَسَاكِنِهِمْ)« ءَايَةٌ »على قدرته تعالى ومجازاته المسىء « جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ » أى جماعتان من البساتين عن يمين بلدهم وشمالها . أو لكل واحد جنتان عن يمين مسكنه وشماله: قيل لهم « كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ» أى بصرف ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله . ثم بين مايوجب الشكر المأمور به ، بقوله سبحانه « بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ » أى لطيفة جميلة مباركة لاعاهة فيها « وَرَبٌّ غَفُورٌ » أى لمن شكره.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)

« فَأَعْرَضُوا » أى عن الشكر « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ » أى سيل الأمر العرم، أى الصعب والمطر الشديد ـ أو الوادى ـ أو السَّكْر الذى يحبس الماء ـ أو هو البناء الرصين المبنىّ بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها . وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه فى سقيهم. فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم . واضطر من نجا منهم للنزوح عنها . كما قال تعالى « وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ » أى ثمر مرّ ، أو بشع لا يؤكل « وَأَثْلٍ » شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له « وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » وهو شجر النبق . أى قلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فهذا تبديل النعم بالنقم ، لمن لم يشكر النعم، كما قال تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧] (ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِيَ إِلَّا الْكَفُورَ)

« ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِيَ إِلَّا الْكَفُورَ » أى بشكر النعم ، أو باتباع الرسل وتكذيب الحق والعدول إلى الباطل . ثم بين تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنىّ والبلاد الآمنة والقرى المتواصلة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» أى بالزروع والثمار وحسن العمران وهى

قرى بصنعاء كما قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومالك وغيرهم «قُرًى ظَـٰهِرَةً» أى متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها . فهى ظاهرة لأعين الناظرين . أو ظاهرة للمسافرين لا تبعد عن مسالكهم «وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ» أى جعلنا بين قراها مقادير متساوية . فمن سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة . ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ، ولا يخاف من عدوّ ونحوه «سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ» أى لا تخافون فى الليل أو النهار . أو وإن تطاول أمد سفركم فيها وامتد، فلا ترون إلا الأمن . والأمر على تقدير القول بلسان المقال بواسطة نبىّ ونحوه، أو بلسان الحال . كأنهم لما تمكنوا منه جعلوا مأمورين به . فالأمر للإباحة . وفى (فى) إشعار بشدة القرب ، حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« فَقَالُواْ » أى بلسان الحال والميل إلى المهالك الشيطانية « رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» أى فاستعدوا لضلالهم وكفرهم لأن تجعل أمكنتهم تعمل فيها المطىّ والرواحل ، لتباعد ما بينها وبين ما يسيرون إليه . وحصل ذلك بما بدلوا به من بلادهم الحسنة « وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ » أى حتى حل بهم ما حل « فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ » أى يتحدث الناس بهم ويتعجبون من نبئهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والعيش الهنىّ « وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أى فرّقناهم كل تفريق ، حتى اتخذه الناس مثلًا مضروباً . يقولون (تفرقوا أيادى سبا ، وذهبوا أيدى سبا) بألف مقصورة . قال الأزهرىّ : العرب لا تهمز سبأ فى هذا الموضع ، لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا فيه الهمز ، وإن كان أصله مهموزاً . والذهاب معلوم. والأيادى جمع أيد . والأيدى جمع يد. وهى بمعنى الجارحة ، وبمعنى النعمة، وبمعنى الطريق، وهو المراد.

قال فى التهذيب : قولهم ذهبوا أيدى سبا ، أى متفرقين . شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله فى الأرض كل ممزق . فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة . و (اليد) الطريق . يقال : أخذ القوم يد بحر .. فقيل للقوم إذا ذهبوا فى جهات مختلفة (ذهبوا أيدى سبا) أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها ، كما تفرق أهل سبا فى مذاهب شتى .

قال ابن مالك : إنه مركب تركيب خمسة عشر ، مبنيًّا على السكون . وفى (زهر الأكم فى الأمثال والحكم) أن سبا كانت أخصب بلاد الله . كما قال تعالى (جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) قيل كانت مسافة شهر للراكب المجدّ . يسير الماشى فى الجنان من أولها إلى آخرها لا يفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الأنهار واتساع الفضاء . فمكثوا مدة فى أمن لا يعاندهم أحد إلا قصموه . وكانت فى بدء الأمر تركبها السيول . فجمع لذلك حميرُ أهلَ مملكته وشاورهم . فاتخذوا سدًّا فى بدء جريان الماء ورصفوه بالحجارة والحديد ، وجعلوا فيه مخارق للماء . فإذا جاءت السيول انقسمت على وجه يعمهم نفعه فى الجنات والمزروعات . فلما كفروا نعم الله تعالى ، ورأوا أن ملكهم لا يبيده شىء ، وعبدوا الشمس ، سلط الله على سدّهم فأرة فخرقته . وأرسل عليهم السيل فمزقهم الله كل ممزق . وأباد خضراءهم . وتبددوا فى البلاد . فلحق الأزد بعمان . وخزاعة ببطن مرّ . والأوس والخزرج بيثرب . وآل جفنة بأرض الشام . وآل جذيمة الأبرش بالعراق .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة ؟ أم أرض ؟ قال ﷺ : بل هو رجل ولد له عشرة . فسكن اليمن منهم ستة . وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : وإسناده حسن إلا ابن لهيعة .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن فروة بن مسيك رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فقاتل بمقبل قومك مدبرهم . فلما وليت دعانى فقال : لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام . فقلت :

يا رسول الله ! أرأيت سبأ ؟ أوادٍ هو أو جبل أو ما هو ؟ قال ﷺ : لا ، بل هو رجل من العرب ولد له عشرة . فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة . تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار ـ الذين يقال لهم بجيلة ـ وخثعم . وتشاءم لخم وجذام وعاملة وغسان .

قال ابن كثير : حديث حسن . وإن كان فيه أبو حباب الكلبيّ ، وقد تكلموا فيه .

ورواه الحافظ ابن عبد البرّ فى كتاب (القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) عن تميم الدارىّ ؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ؟ فذكر مثله .

وقال ابن كثير : فقوى هذا الحديث وحسن .

وذكر علماء النسب ، منهم محمد بن إسحق اسم سبأ ، عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب وكان يقال له الرائش . لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه . فسمى الرائش . والعرب تسمى المال ريشاً ورياشاً . وذكروا أنه بشّر برسول الله ﷺ فى زمانه المتقدّم . وقال فى ذلك شعرا :

سيملكُ بعدنا مَلِكٌ عظيمٌ ... نبيٌّ لا يرخِّص فى الحرامِ
ويملك بعده منهم ملوكٌ ... يدينوه القيادَ بكل رامى
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا بانقسامِ
ويملك بعد قحطان نبيٌّ ... تَقِى مُتَحَنِّثٌ خيرُ الأنامِ
يسمّى أحمدًا . ياليت أنى ... أعمّر بعد مبعثه بعامِ
فأعضده وأحبوه بنصرى ... بكل مُدَجَّج وبكل رام
متى يظهرْ فكونوا ناصريه ... ومن يَلْقَهْ يبلِّغْهُ سلامِى

ذكر ذلك الهمدانىّ فى كتاب (الإكليل) . واختلفوا فى قحطان . فقيل : إنه من سلالة إرم بن سام نوح . وقيل : من سلالة عابر وهو هود عليه السلام . وقيل : إنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام . وقد ذكر ذلك مستقصًى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ النمرىّ فى كتاب (الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه) .

قال ابن كثير : ومعنى قوله ﷺ فى سبأ : كان رجلا من العرب ، يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث . كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم . والله أعلم .

ولكن فى صحيح البخارى[1] أن رسول الله ﷺ مرّ بنفرٍ من أسلم ينتضلون فقال : ارموا ، بنى إسماعيل ! فإن أباكم كان راميا . وأسلم قبيلة من الأنصار . والأنصار أوسها وخزرجها من عرب اليمن ، من سبأ ، نزلت يثرب ، لما تفرقت ، كما مر .

(ثم قال) : ومعنى قوله ﷺ : ولد له عشرة أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن . لا أنهم ولدوا من صلبه . بل منهم من بينه وبينه ، الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من قصتهم ، وما حل بهم من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية على ما ارتكبوه من الكفر والآثام « لَآيَٰتٍ » أى لعبرا عظيمة « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى شأنه الصبر عن الشهوات والهوى والآثام ، والشكر على النعم . قال الأعشى من قصيدة .

فى ذاكَ للمؤتسى أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَفَّى عليهـا العَرِمْ
رُخـامٌ بنته لهم حِمْيَرٌ ... إذا جاء موّاره لم يَرِمْ
فأروى الزروعَ وأعنابَها ... على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أَيَادِىَ ما يقدرو ... ن منه على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

(١) أخرجه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٨ـباب التحريض على الرمى ، حديث رقم ١٣٨٧ عن سلمة بن الأكوع .

[٢١] (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » قال الزمخشرىّ : قرئ (صدق) بالتشديد والتخفيف. ورفع لفظ (إبليس) ونصب (الظن) فمن شدد ، فعلى : (حقق عليهم ظنه ، ووجده ظنه صادقا) أى صدّق بمعنى حقق مجازا . لأنه ظن شيئا فوقع فحققه . وقوله (أو وجده ظنه صادقا) فإن العرب تقول صدّقك ظنك . والمعنى أن إبليس كان يسوّل له ظنه شيئا فيهم . فلما وقع جعل كأنه صدقه . اهـ شهاب .

ومن خفف فعلى (صدق فى ظنه، أو صدق يظن ظنا) نحو فعلته جهدك . أى فى (ظنه) منصوب على الظرفية بنزع الخافض. وأصله (فى ظنه) أى وجد ظنه مصيبا فى الواقع ، فـ(صدق) حينئذ بمعنى أصاب ، مجازا . أو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدّر . كفعلته جهدك ، أى وأنت تجهد جهدك . فالمصدر وعامله فى موقع الحال . اهـ شهاب .

وبنصب (إبليس) ورفع (الظن) فمن شدد فعلى (وجد ظنه صادقا) . ومن خفف ، فعلى (قال له ظنه الصدقَ حين خيله إغواؤهم) برفع (إغواؤهم) على الفاعلية . أو نصبه على الحذف والإيصال ، وفاعله وضمير الظن . أى خيـــل له إغواءهم . اهـ شهاب . يقولون صدقك ظنك .

وبالتخفيف ورفعهما ، أى على إبدال الظن من إبليس ، بدل اشتمال . اهـ شهاب . على (صدق عليهم ظن إبليس) . انتهى .

وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم فى الشهوات ، أو ببنى آدم حينما رأى ماركب فيهم من الشهوة والغضب .

« فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ » أى ما كان له عليهم من تسليط واستيلاء

بالوسوسة والاستغواء ، إلا لغرض صحيح وحكمة بينة . وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها. وعلل التسليط بالعلم. والمراد ماتعلق به العلم. قاله الزمخشريّ. يعنى أن العلم المستقبل المعلل به هنا ، ليس هو العلم الأزليّ القائم بالذات المقدس ، بل تعلقه بالمعلوم فى عالم الشهادة الذى يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب . فالمعنى ماسلطناه عليهم إلا ليبرز من كمون الغيب ما علمناه ، فتظهر الحكمة فيه ويتحقق ما أردناه من الجزاء أو لازمه ، وهو ظهور المعلوم .

ويجوز أن يكون المعنى : لنجزى على الإيمان وضده . كذا فى (العناية) « وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » أى رقيب قائم على أحواله وأموره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ)

« قُلِ » أى للمشركين، إظهاراً لبطلان ماهم عليه وتبكيتا لهم « ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم » أى زعمتموهم آلهة « مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى من خير وشر ونفع وضر « فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ » أى شركة، لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا « وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ » أى معين يعينه على تدبير خلقه ، قال الزمخشريّ : يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية. فكيف يصح أن يُدْعَوا كما يدعى ، ويرجَوْا كما يرجى ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ، حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ)

« وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ » أى من المستأهلين لمقام الشفاعة ،

كالنبيين والملائكة . وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله « حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ » أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة ، فى إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك « قَالُواْ » أى سائلا بعضهم بعضا « مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ » أى قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى « وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ » أى ذو العلو والكبرياء . ليس لملك ولا نبىّ أن يتكلم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى .

قال ابن كثير : هذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة ، حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرهما .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : بم اتصل قوله (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) ولأى شىء وقعت (حتى) غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا يؤذن . وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملىّ من الزمان وطول من التربص . ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل[1] (رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) أى : وإذا كانت الشفاعة لمن أذن له بهذا الحال ، عظمة وسموًّا من ذى الجلال ، فأنّى ينالها جماد لا يعقل ، لاسيما وهو عدوّ للكبير المتعال ، فتبين كذبهم فيهم أنهم شفعاء ، وحرمانهم من مقامها ، بأجلى بيان وأفصح مقال .

وفى الآية تأويل آخر . وهو أن معنى قوله تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أى عن قلوب المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا تنبهوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أى كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : أى كشف عما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٧و٣٨] .

هذا عند الموت ، أقرّوا حين لاينفعهم الإقرار . واختار ابن جرير[1] القول الأول ، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا هو الحق الذى لامرية فيه . لصحة الأحاديث فيه والآثار ، أى ولورود مايؤيده فى آية أخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضا وذلك فى قوله تعالى[2] (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ) نعم ، النظم الكريم لايأبى ما ذكروه ، إلا أن مراعاة الأشباه والنظائر هو العمدة فى باب فهم التأويل ، ما وجد إليها سبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، قُلِ ٱللَّهُ ، وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أمر بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما . وقوله « قُلِ ٱللَّهُ » أى الذى تعترفون بأنه هو الخالق . كما قال تعالى[3] (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ) أى فحينئذ قامت الحجة عليهم منهم .

« وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى وإن أحد الفريقين من الموحدين ، الرازق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لايوصف بالقدرة على ذرة ، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٣) [١٠ / يونس / ٣١] .

قال الزمخشرىّ : وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من مُوالٍ أو مناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك . وفى دَرْجِهِ بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ ، دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو فى الضلال المبين . ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك . وإن أحدنا لكاذب . ومنه بيت حسان [1] :

أتهجوه ولستَ له بكفء فشرُّكما لِخَيْرِكما الفِدَاء

انتهى .

قال الناصر : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب ، ردد ته على سمعى فزاد رونقاً بالترديد . واستعاده الخاطر ، كأنى بطىء الفهم حين يفيد . ولا ينبغى أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التى أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء فى مجادلاتهم ومحاوراتهم . وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإبهام . فهذا المسلك من هذا الوادى غير بعيد ، فتأمله ، والله الموفق . انتهى .

قال الشهاب : وهذا فن من فنون البلاغة يسمى (الكلام المنصف) . وقيل إن الآية على اللف والنشر المرتب . ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعا لقوله (وَإِنَّآ) و (أَوْ فِى ضَلَٰلٍ) راجعا لـ (إياكم) كان العطف بالواو لا بأو . وكونها بمعنى الواو كما فى قوله :

سِيَّانِ كسرُ رَغِيفِهِ أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

عَفَتْ ذات الأصابع فالجِواء إلى عذراء منزلها خَلاء

يهجو بها أبا سفيان ، وكان هجا النبىّ ﷺ قبل إسلامه .

(ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق . وعذراء : موضع على بريد من دمشق . وعفت : درست) .

بعيد جداً . إلّا إنه قيل : لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد . وإيثار (على) فى الهدى و(فى) فى مقابله ، للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنه واطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال ، أو الراكب على جواد . وانغماس الضال فى ضلاله حتى كأنه فى مهواة مظلمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلَ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى قل لهؤلاء المشركين : لا تسئلون عما أجرمنا من جرم وركبنا من إثم ، ولا نسئل نحن عما تعملون من عمل .

قال ابن كثير : معناه التبرى منهم . أى لستم منا ولا نحن منكم . بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفرادِ العبادة له . فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى[1] (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) وكقوله[2] (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) السورة . انتهى .

وما ذكره معنى دقيق ، قلَّ من يتفطن له ، أسميه التفسير بالأشباه والنظائر . وهو حمل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة . ولا يدرك هذا إلا الراسخ فى فن التأويل ، الولع بتدبر التنزيل ، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشرىّ والمنتصف ، من أن هذا القول أدخل فى الإنصاف من الأول . حيث أسند الإجرام إلى النفس ، وأراد به الزلات والصغائر التى لا يخلو عنها مؤمن . وأسند العمل إلى المخاطبين ، وأراد به الكفر والمعاصى والكبائر . فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم . وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاماً للإنصاف . وزيادة على ذلك ، أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضى ، الذى يعطى تحقيق المعنى . وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك . والله أعلم .

---

(١) [١٠ / يونس / ٤١] . (٢) [١٠٩ / الكافرون / ١ ـ ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا » أى يوم القيامة فى صعيد واحد . « ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أى يقضى بالعدل . لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال . فيتبين يومئذ المهتدى منا من الضالّ ، ويجزى كلا بعمله ، كما قال تعالى[1] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) ولهذا قال سبحانه « وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » أى الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه ، لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يحتاج إلى شهود تعرّفه المحق من المبطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ » أى جعلتموها لله أنداداً ، وصيرتموها له عدلًا . قال أبو السعود : أريد بأمرهم بإراءة الأصنام ، مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام . إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم . أى أرونيها لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شىء فى استحقاق العبادة . وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم . وقد جوّز المعْرِبُ فى (رأى) هنا أن تكون علمية متعدية بهمزة النقل ، إلى ثلاثة مفاعيل : ياء المتكلم والموصول وشركاء . وعائد الموصول محذوف . أى ألحقتموهم . وأن تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنين : ياء المتكلم والموصول ، و (شركاء) حال . ولا ضعف

(١) [٣٠ / الروم / ١٤ ـ ١٦] .

فى هـــذا كما قاله ابن عطية . بل فيه توبيخ لهم ، إذ لم يرد حقيقته . لأنه كان يراهم ويعلمهم . فهو مجاز وتمثيل . والمعنى : مازعمتموه شريكا إذا برز للعيون وهو خشب وحجر ، تمت فضيحتكم . وقوله تعـــالى « كَـلَّا » ردع لهم عن المشاركة ، بعد إبطال المقايسة « بَلْ هُوَ ٱللَّـهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَـكِيمُ » أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحـكمة الباهرة. فأين شركاؤكم التى هى أخسّ الأشياء وأذلها ، من هذه الرتبة العالية. والضمير إما لله عز وعلا، أو للشأن. قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

«وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَـآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أى وما أرسلناك إلا إرسالة عامة لجميع الخلائق من المـكلفين . تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ، كقوله تبارك[1] وتعالى (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّـهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)[2](تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا).

(وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى فيحملهم جهلهم على ماهم فيه من الغىّ والضلال كقوله عز وجـــل[3] (وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)[4](وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّـهِ) قال ابن عباس ـ فيما رواه ابن أبى حاتم ـ إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس! فبِمَ فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال[5] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

(١) [٧/ الأعراف/ ١٥٨]. (٢) [٢٥/ الفرقان/ ١]. (٣) [١٢/ يوسف/ ١٠٣].
(٤) [٦/ الأنعام/ ١١٦]. (٥) [١٤/ إبراهيم/ ٤].

بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، وقال للنبيّ ﷺ (١) (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير : وهـذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما قد ثبت فى الصحيحين . رفعه عن جابر رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ (٢): أعطيت خمساً لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ. وأحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبيّ يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة. وفى الصحيح أيضاً(٣) ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بعثت إلى الأسود والأحمر . قال مجاهد : يعنى الجن والإنس . وقال غيره : يعنى العرب والعجم اهـ . والتحقيق فى معنى عموم إرساله وشمول بعثته ، هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأىّ زمان وجدوا ، مما لم يتفق فى شرع قبله قط . ولهذا ختمت النبوّات بنبوّته ﷺ ، كما تقرر فى موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

[٣٠] (قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٨] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا ، حديث رقم ٢٣١ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ عن جابر ابن عبد الله (طبعتنا) .

لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ » يعنون بالوعد المنذر به استهزاء ، كقوله تعالى[1] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ) وقوله[2] (وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ، فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » وهو ما نزل قبل القرآن من كتبه تعالى « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ » أى يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم . ثم أبدل من (يَرْجِعُ) قوله « يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ » وهم قادتهم وسادتهم « لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ)

« قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ » أى نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك .

(١) [٤٢ / الشورى / ١٨] . (٢) [١١ / هود / ١٠٤و١٠٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ، وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ » أى مكركم فيهما وإغراؤكم وتمنيتكم لنا « إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا » أى نظراء وآلهة معه « وَأَسَرُّوا۟ » أى الجميع من السادة والأتباع « ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم كلٌّ بحسبه . للقادة عذاب بحسبهم . وللأتباع بحسبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

[٣٥] (وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ* وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى زعماً أنه أكرمهم الله بذلك فى الدنيا، فلا يعذبهم فى الآخرة على تقدير وقوعها. وتوهما بأنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم. ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم . وقد أبطل الله تعالى حسبانهم ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيئته فى عباده ، من يحب ومن لا يحب ، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه . فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب ، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها . ولذا قال « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ذلك . فيزعمون أن مدار البسط الكرامة ، والتضييق الهوان . ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى ، إنما هو الكمالات النفسية. وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ)

« وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ » أى بالمزية التى تقربكم قربة . فـ (زُلْفَىٰٓ) محلها النصب « إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ » أى الثواب المضاعف « بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ » أى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن نظائر الآية قوله تعالى(١) (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وقوله سبحانه(٢) (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥و٥٦] . (٢) [٩ / التوبة / ٥٥] .

وَهُمْ كَٰفِرُونَ) . وروى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

« وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا » أى بالصدّ عنها والطعن فيها « مُعَٰجِزِينَ » أى قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر « أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » أى فى عذاب جهنم محضرون يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ، وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ)

« قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ، وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ » أى يعوضه . فإن ينابيع خزائنه لا تنضب . وسحائب أرزاقه سحّاء الليلَ والنهارَ « وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » أى أعلاهم . لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق . روى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض . يعض الموسر على ما فى يده حذار الإنفاق . ثم تلا هذه الآية (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) وقال مجاهد : لا يتأولنّ أحدكم هذه الآية (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) .

(٢) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)

[٤١] (قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر (إياك أعنى واسمعى ياجارة) ونحوه قوله تعالى[1] (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ) وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير. والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا. فيكون تقريعهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وهوانهم ألزم . ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجراً لمن اقتص عليه . انتهى .

وتخصيص الملائكة ، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركى العرب . ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة . فتكون شفعاء لهم . وقوله تعالى (أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) أى: أبإذنكم كان ذلك. كما قال تعالى[2] (أَءَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ) وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام[3] (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ) وهكذا تقول

(١) [٥ / المائدة / ١١٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١٧] .
(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] .

الملائكة (سُبْحَانَكَ) أى تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) أى أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم . فنبرأ إليك منهم. بينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم. وقولهم (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم. والضمير الأول فى قولهم (أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) الإنس أو المشركين . والأكثر بمعنى الكل . والثانى للجن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

« فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لأن الأمر كله فيه لله. لأن الدار دار جزاء وهو المجازى وحده . قال أبو السعود : وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة . يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية «وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» وهم المشركون «ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ» ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا» يعنون رسول الله ﷺ «إِلَّا رَجُلٌ

يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ »أى القرآن الكريم« إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ)

« وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ » أى ماأنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لوجاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا. فلما منّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه . ثم هددهم سبحانه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

« وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا «وَمَا بَلَغُواْ » أى هؤلاء «مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ »يعنى أولئك، من المال وبسطة الملك والعمران والمدنية « فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أى عقابى ونكالى وانتقامى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

« قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ » أى بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وقد فسرها بقوله « أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ » أى قياماً خالصاً لله بلا محاباة

ولا مراءاة ، اثنين اثنين وواحدا واحدا «ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ» أى فى أمره ﷺ وماجاء به من الهدى والإصلاح وتهذيب الأخلاق ، ورفع النفس عن عبادة ماهو أحط منها من الأوثان ، إلى عبادة فاطر الأرض والسموات، واتباع الأحسن، ونبذ التقاليد، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة فى الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة فى الكتب المؤلفة فى ذلك. وقوله تعالى « مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ » أى جنون . مستأنف منبّه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف فى ترجح صدقه . فإنه لايدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق وثوق ببرهان . فيفتضح على رؤوس الأشهاد، ويلقى نفسه إلى الهلاك. فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة؟ وجوّز كون الجملة معللا عنها. لقول ابن مالك: إنّ (تفكر) يعلّق حَمْلا على أفعال القلوب. والتعبير عنه ﷺ (بصاحبهم)، للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم . لأنه نشأ بين أظهرهم معروفا بقوة العقل ورزانة الحلم وسداد القول والفعل . « إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وهو عذاب الآخرة والمآل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

[٤٨] (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)

[٤٩] (قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

« قُلْ مَاسَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ » أى أىّ شىء سألتكم من أجر على الرسالة فهو لكم . والمراد نفى السؤال رأساً . وإمحاض النصح كناية ، لأن مايسأله السائل ، يكون له . فجعله للمسئول عنه ، كناية عن أنه لايسأل أصلا . و (ما) على هذا شرطية . وجوز كونها

موصولة مرادا بهـا ماسألهم[1] (مَآ أَسْـَٔلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) وقوله[2] (قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى . وقرباه عليه السلام قرباهم . وجوّز أيضاً كونها نافية . وقوله (فَهُوَ لَكُمْ) جواب شرط مقدر . أى فإذا لم أسألكم فهو لكم « إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ » أى يرمى به الباطلَ فيدمغه ويزهقه. أو يرمى به فى أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق «عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ* قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ » أى ظهر، وهو الإسلام ومحاسنه «وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ » كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره . مأخوذ من هلاك الحىّ . فإنه مادام موجودا، إما أن يبدىء فعلا أو يعيده. فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة. ثم شاع ذلك فى كل ماذهب ، وإن لم يبق له أثر، وإن يكن ذا روح. وجوز كون (ما) استفهامية منتصبة بما بعده. أى : أى شىء يقدر عليه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ، وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى ، إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

« قُلْ إِن ضَلَلْتُ » أى عن الطريق الحق « فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى » أى لأن وبال ذلك عائد عليها، أو على ذاتى، لا على غيرى « وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ » أى من الرشاد والحق المبين « إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » فإن قيل: مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال (وإن

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

اهتديت فإنما أهتدى لها) فلِمَ عدل عنها إلى ماذكر ؟ قيل : إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى . وما هنا من الثانى . بيانه أن النفس كل ماعليها فهو بها ، أى : كل ماهو وبال عليها ، وضارّ لها ، فهو بسببها ، ومنها . لأنها الأمارة بالسوء . وكل ماهو لها مما ينفعها ، فبهداية ربها وتوفيقه إياها .

وهذا حكم عام لكل مكلف . وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه . لأن (الرسول) إذا دخل فى عمومه ، مع علوّ محله وسداد طريقته ، كان غيره أولى به . أشار لهذا ، الفاضل ابن الأثير فى (المثل السائر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ » أى هؤلاء المكذبون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه ، ودخولهم تحت أسره « فَلَا فَوْتَ » أى لهم ، بهرب أو التجاء . إذ لا وزر لهم ولا ملجأ « وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)

« وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ » أى بمحمد ﷺ ، أو القرآن « وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى : ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء ، لا دار الابتلاء . أو : لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى (على تفسير (إِذْ فَزِعُوا۟) بظهور الحق عليهم فى حياتهم . اهـ منه) قال الزمخشرىّ : التناوش والتناول ، أخوان . إلا أن التناوش ، تناول سهلٍ لشىءٍ قريب .

يقال : ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال تناوشوا فى الحرب . ناش بعضهم بعضا . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون . وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع ، تناولاً سهلا لا تعب فيه . انتهى . أى ففيه استعارة تمثيلية . شبه إيمانهم حيث لا يقبل، بمن كان عنده شيء يمكن أخذه . فلما بعد عنه فرسخاً، مد يده لتناوله. وقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٣] (وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)

« وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ » حال أو معطوف أو مستأنف . والأول أقرب . « وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى يرجمون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من أقوالهم الباطلة . كقولهم : ساحر وشاعر ومجنون وما نحن بمبعوثين . ونحو ذلك . فكله مقذوف من جهة بعيدة ، لا قرب لمصداقها بوجهٍ ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ)

« وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ » أى من نفع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النار . أو من أن يدال لهم الأمر . لأنه جاء نصر الله والفتح « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ » أى بأشباههم من كفرة الأمم « إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ » من (أرابه) أوقعه فى ريبة وتهمة . فالهمزة للتعدية . أو من (أراب الرجل) أى صار ذا ريبة . وهو مجاز ، إما بتشبيه الشك بإنسان ، على أنه استعارة مكنية وتخييلية . أو على أنه إسناد مجازىّ ، أسند فيه ما لصاحب الشك ، للشك ، للمبالغة . أفاده الشهاب .

تنبيه :

فى الإكليل ؛ قال ابن الفرَس : احتج بهذه الآية بعض المفسرين ، على أن الشاك كافر . وردَّ بها على من زعم أنه ليس بكافر ، وأن الله لا يعذب على الشك . انتهى .

وعن قتادة : إياكم والشك والريبة . فإن من مات على شكٍّ بُعث عليه . ومن مات على يقين بعث عليه .

أحيانا الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، وولىّ المؤمنين .

obeikandl.com